المحاضرة السابعة والثلاثون: تصنيف الرموز

المحور الثالث

بفضل اهتمام علماء الأنثروبولوجيا بالرمز كمدخل في دراسة الثقافة والمجتمع، ان ظهرت المناهج والنظريات المختلفة المهتمة بجوانب معينة من الرموز ومما يتعلق بمدى فائدتها في الدراسة. مما نتج عنه ظهور تصنيفات متعددة للرموز هدفت إلى تأسيس إطار تصنيفي علمي لأهم الرموز التي ساعدت في توفير دراسة علمية ودقيقة للثقافة أو المجتمع، لعل من أكثر التصنيفات شيوعا تلك التي قدمها ادوارد سابير Edward sapair و فيكتور تيرنر Victor Turner

أولا: تصنيف سابير

يضع سابير تميزا بين صنفين من الرموز الصنف الأول يطلق عليه رمز المرجعية Referential sumbol . وهي تشير إلى تلك الأشكال التي تشمل اللغة الشفاهية (الكلام) والكتابة، وشفرة التلغراف، والإعلام القومية وسائر التنظيمات الأخرى من الرموز المتفق عليها والتي تعد وسائل اقتصادية ذات أهمية لأغراض مرجعية.

أما الرمز الثاني يطلق عليه الرموز المكثفة consendation symbolismتتميز أيضا بالاقتصاد ومشبعة بالانفعالات. هذا النوع من الرموز يوصف بأنه شكل مكثف جدا من السلوك الاستبدالي للتعبير المباشر الذي يسمح بإطلاق التوتر الانفعالي في صورة شعورية أو لا شعورية. ويذهب

سابير إلى انه في السلوك الفعلي الواقعي. يمتزج ويتداخل هذين النوعين من الرموز فيما بينهما.

مثال في ذلك_ يمكن لأنواع معينة من الكتابة أو الشعارات اللفظية التي تعد رموز مرجعية إن تأخذ بسهولة صفة أو خاصية الشعائر الانفعالية (أو الرموز المكثفة). وتصبح ذات أهمية للفرد والمجتمع بوصفها أشكال استبدالية للتعبير الانفعالي.

ويقول سابير إن الرموز المرجعية متأخرة في تطورها عن الرموز المكثفة، فمعظم الرموز المرجعية يمكن ردها إلى رموز ظهرت بشكل لا شعوري مشبعة بخاصية انفعالية والتي أخذت بالتدرج شكل الرموز المرجعية عندما تخلت عن السلوك الانفعالي المرتبط بها.

فخلاصة القول بالرغم من بساطة التصنيف الذي قدمه سابير إلا انه اثبت إن قيمته وفائدته في التمييز بين موضوعات العالم الخارجي (أو الرموز المرجعية) وبين الحالات النفسية المتعلقة بالعالم الداخلي للفرد أو بالذات (الرموز المكثفة المشبعة بالانفعالات). لكن ما يؤخذ على تصنيف سابير اعتماده على التحليل النفسي في دراسة الرموز، وخاصية الرموز المكثفة الانفعالية، بشكل يؤثر على طبيعة التحليل الاجتماعي والثقافي، لكن ذلك النقد لا يقلل من أهمية بعض التصورات التي قدمها سابير لاسيما خاصية التكثيف التي أخذها وطورها تيرنر في دراسته الرمزية.

ثانيا_ تصنيف تيرنر

يميز تيرنر بين نوعين من الرموز

أولاً: الرموز المهيمنة Dominants symbols ، وتعد أهدافاً في حد ذاتها سواء كانت هذه الرموز متضمنة في الشعائر أو مستخدمة في التفاعل الاجتماعي.

ثانيا: الرموز الوسيلية Instrumental symbols : وتعد رموز تستخدم كوسائل لتحقيق الأغراض أو الأهداف الأساسية في شعيرة معينة أو في التفاعل الاجتماعي.

خصائص الموز المهيمنة عند تيرنر

١) التكثيف condensation

بمعنى إن عدة أفكار وتصورات وانفعالات وأفعال تتبلور وتتمثل في رمز واحد أو صياغة رؤية واحدة. في هذا المعنى يجمع تيرنر بين مفهوم الرموز المرجعية ومفهوم الرموز المكثفة، فان الرموز المهيمنة عند تيرنر تعد رموز مرجعية وتكثيفية أو مكثفة في الوقت نفسه. وإذا كان سابير _كما يقول تيرنر_ ركز على الجانب الانفعالي من الرموز المكثفة، فان الرموز المهيمنة تتصف باعتماد الجانب الفكري أو المعرفي والجانب الوحداني الانفعالي في وحدة واحدة.

اندماج الرموز اللفظية الكلام مع الحزن وانفعالاته (مظاهر الصياح – الضرب – اللطم)

اندماج الرموز اللفظية الكلام مع الفرح وانفعالاته (الرقص – التصفيق)

٢) الوحدة unirication

وحدة الرموز والمعاني المختلفة في صياغة رمزية واحدة. يعطي تيرنر مثالا عن مجتمع ديمبو dembu (شمال غرب زامبيا) إثناء دراسة الميدانية

للقبيلة أو المجتمع. ففي مجتمع ديمبو توجد شجرة لبن تستخدم كرمز أساسي أو مهيمن يحتوي في مضمونه عدة معاني مختلفة. إذ إن الشجرة تعني الأمومة ومبدأ الانتساب إلى الأم كما إنها تعني صدر المرأة وذلك لوجود المادة البيضاء التي تشبه اللبن. وتعني أيضا استمرارية شعب ديمبو ككل.

فضلا عن إن هذه المعاني يمكن توحيدها وربط فيما بينها داخل إطار معنى واحد هو التغذية والاعتماد.

نموذج أخر، الشعائر في الدين الإسلامي (الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج... الخ). فالصوم يعني كسر الشهوات الإنسانية بالامتناع عن الطعام والشراب والجنس. ويعني الشعور بجوع الفقراء، فيسعى الإنسان إلى المساعدة والإحسان، وتضمين لقانون التكافل الاجتماعي، ويعني أيضاً وحدة المسلمين بأدائهم الشعائر في كل مكان يمتد به الإسلام وبتوقيت زمني معين (محدد). فهنا تضمين لوحدة المسلمين فضلا عن استمرارية الإسلام باستمرارية شعائره عقيدة وعبادة ومعاملة. كما يمكن جمع هذه المعاني جميعها وربطها في معنى واحد هو الإسلام وأركانه.

٣) قطبية المعنى polarization of meaning

هذه الخاصية تعني إن الرموز المهيمنة تحوي على إبعاد أو أقطاب متقابلة ويميز تيرنر بين:

أولاً_ القطب الحسي أو الفسيولوجي الذي يرتبط بالشكل الخارجي للرمز ويرتبط أيضاً بوجدان ومشاعر ورغبات الناس.

ثانيا_ القطب الأيديولوجي أو المعرفي والمعياري، بمعنى يرتبط بأفكار ومعايير وقيم توجه وتحكم أعضاء المجتمع في تفاعلهم وسلوكهم. وبالإشارة إلى

المثال مجتمع ديمبو (شجرة اللبن) التي تستخدم في شعيره نضج الفتاه. يذهب تيرنر إلى إن الجانب الحسي _الفسيولوجي_ الخارجي يتمثل في علاقة التشابه الموجودة بين لبن صدر المرأة والمادة اللزجة البيضاء التي تفرزها شجرة اللبن. وعلى مستوى القطب الايدولوجي او الفكري فان شجرة اللبن ترمز إلى معانٍ الأنوثة والأمومة ووحدة واستمرارية الجماعات المؤلفة لمجتمع ديمبو.

وبالرجوع إلى مثال (فريضة الصوم في الإسلام). فعلى الصعيد الفسيولوجي (هو الابتعاد عن اللذات سلوك ظاهر-خارجي). لكنه في الوقت نفسه وعلى الصعيد الفكري_ العقيدي_ فيعني تضمين للإحسان والمساعدة وتوحيد المسلمين واستمرارية الإسلام. والصوم لله، عبادة لله، صوم الجوارح الإنسانية.

مثال عن الرموز المهيمنة، يقول تيرنر ان الرموز المهيمنة تعد أهدافا في حد ذاتها سواء كانت هذه الرموز متضمنة في الشعائر أو مستخدمة في التفاعل الاجتماعي. متضمنة في الشعائر (مثلاً في الصلاة نستخدم الرموز اللفظية وحركات الركوع والسجود) فكلها أهداف أو تستخدم في التفاعل الاجتماعي (الرموز اللفظية وغير اللفظية).

ومما يتعلق بالرموز الوسيلة عند تيرنر Intrumental symbols

يقول تيرنر أنها لا تكتسب أهميتها من حيث إنها رموز في حد ذاتها بل من حيث هي وسائل لأغراض وأهداف محددة، ففي مجتمع ديمبو هناك شجرة تستهدف تخصيب النساء، في هذه الشجرة تستخدم أجزاء محملة بالثمار كوسيلة لتخصيب النساء. ويعتقد أهالي ديمبو ان الثمار تمثل أو ترمز إلى الأطفال. فضلاً عن أن هذه الثمار لها تأثير إيجابي في عملية التخصيب كما يعتقد أفراد

ديمبو، وعلى هذا الأساس ينظر تيرنز لهذه الثمار على أنها رموز وسيلية تستخدم لتحقيق هدف أساسي للشعيرة وهو تخصيب النساء.

نموذج أخر، إذ أن الحصى التي يستخدمها المسلم في أداء شعيرة رجم الشيطان في مناسك الحج، فالحصى ليس لها أهمية في حد ذاتها، إنما اكتسبت أهميتها بوصفها الرمز المستخدم كوسيلة لرجم الشيطان والمعصية والغفلة أو الشهوة والتوبة إلى الله عز وجل. بمعنى أخر اكتسبت أهميتها بوصفها أصبحت وسيلة لتحقيق هدف معين.